مجلة المخبر " أبحاث في اللغة والأدب الجزائري " المجلد 22/العدد01 (2025)
ISSN 1112 – 6280 / E-ISSN :2588-2465 الصفحات: 09- 45

في تفسير الطبقية والانتماء الاجتماعي–مقاربة تاريخية وجمالية لرواية "العلج أسير البرابرة" لشكري خوجة

On Class and Social Belonging: A Historical and Aesthetic Approach to The Slave of the Barbarians by Chukri Khodja

فتحي بوخالفة

1– مخبر الشعرية الجزائرية–جامعة المسيلة(الجزائر)/fethi.boukhalfa@univ–msila.dz

تاريخ الاستلام: 2025/05/04 تاريخ القبول: 2025/10/02 تاريخ النشر: 2025/12/31

الملخص : يعنى البحث بتقديم رؤية في تفسير الطبقية والانتماء الاجتماعي، في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية، خلال أواخر العشرينيات من القرن الماضي. وذلك من خلال الاقتراب من ظاهرة الاندماج والتجنس، التي عرضت من الناحية التاريخية في "الجزائر" على وجهين. تعلق الوجه الأول بوضعية الأسرى الأوروبيين الأجانب، خلال القرن الخامس عشر الميلادي، على عهد حكم الأتراك العثمانيين. والوجه الثاني، عندما طرحت مسألة الاندماج والتجنس على الجزائريين، خلال العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي، خلال فترة الاستعمار الفرنسي. وقد أدت ظاهرة الاندماج إلى وجود صراع طبقي اجتماعي، على مستوى البنية الاجتماعية الجزائرية، خلال عهدين تاريخيين متباعدين، الشيء الذي أدى إلى وجود وعي تاريخي واجتماعي جديد.

الكلمات المفتاحية :الاندماج،البنية الاجتماعية الانتماء، الصراع الطبقي، المادية التاريخية

Abstract: This study offers an interpretation of class and social belonging from a historical and aesthetic perspective. It focuses on Algerian literature written in French during the late 1920s. The analysis centers on the phenomenon of integration and naturalization, presented historically in Algeria in two distinct forms. The first concerns the status of foreign European captives during the 15th century, under Ottoman rule. The second appears during the 1920s and 1930s, when integration and naturalization were debated under French colonialism. The phenomenon of integration led to class conflict within Algerian society. This conflict unfolded across two different historical periods. As a result, a new form of historical and social.

Kayswords Integration, social structure, belonging, class conflict, historical materialism

المؤلف المرسل: فتحي بوخالفة

الاميل: fethi.boukhalfa@univ–msila.dz

في تفسير الطبقية والانتماء الاجتماعي–مقاربة تاريخية وجمالية لرواية "العلج أسير البرابرة" لشكري خوجة

مقدمة :

في معالجة مسألة الهوية والاندماج في الرواية الجزائرية الحديثة، لابد من الاستناد إلى نماذج روائية تنتمي من الناحية الفنية إلى الرواية "الإثنولوجية". وهي الرواية التي ظهرت خلال العشرينيات من القرن العشرين في "الجزائر" باللغة الفرنسية، وامتد ظهورها إلى أواخر الأربعينيات من القرن نفسه؛ أي ما بين سنتي 1929م–1948م. حيث شكلت قضية الاندماج على مستوى هذه الأعمال الروائية، مسألة جوهرية شكلت تحديا حضاريا بالنسبة للإنسان الجزائري آنذاك، من حيث التمسك بقيم الأصالة وإثبات الذات الجزائرية، بكل ما تحمله من خصوصيات حضارية، أو التخلي بشكل كلي ونهائي عن الانتماء الحضاري الأصيل، والاندماج في قيم الحضارة الغربية، التي كانت تمثلها المنظومة الثقافية الفرنسية في ذلك الوقت. فيكون الإنسان الجزائري في هذه الحال في مواجهة عالم خارجي، وأمام انشغال جوهري يقتضي منه فهم «ما يفعله للعالم وما يفعله العالم به»(تيري إنجلتون،2012،ص:15).

لذلك انعكست مسألة الهوية والاندماج، في الأعمال الروائية الجزائرية، بشكل ملفت للنظر من خلال نماذج روائية معروفة على غرار رواية "العلج أسير البرابرة" لـ"شكري خوجة"، رواية "مريم بين النخيل" لـ"محمد ولد الشيخ"، رواية "بولنوار فتى جزائري" لـ"رابح زناتي"، رواية "ليلى فتاة جزائرية" لـ"جميلة دباش"

ومثلما اختلف المثقفون عامة وقتها بشأن مسألة الاندماج في قيم الحضارة الغربية الفرنسية، اختلف الروائيون كذلك بشأن هذه المسألة، بشكل لم يصل إلى حد التعارض الكلي، والاندماج في قيم الحضارة الغربية الفرنسية دون قيود أو شروط. أو حتى رفض الاندماج بشكل نهائي، لأن الكل كان متشبعا بالثقافة الفرنسية، وأبدوا إعجابا كبيرا بالمنجزات الحضارية التي أدخلتها "فرنسا" "الجزائر" وقتها. كما كانت لديهم القناعة الكلية، بأن سبيل الحضارة في

"الجزائر"، لابد أن يمر عبر القنوات الحضارية الفرنسية، مما يعني قبول "الاندماج" من أجل الحصول على الحقوق السياسية، والتمكن من قيم العصرنة، التي كانت تمثل وقتها السبيل الأنجع للانفتاح على الثقافة الفرنسية، والتي كانت تعد –من منظورهم–، الإمكانية الفعلية الموصلة "للحداثة" و"العصرنة".

1–الفكر الإدماجي وصراع النخب:

وعلى اختلاف رؤى المثقفين عموما في "الجزائر" حول مسألة "الاندماج"، وتباين تصوراتهم حولها، ومدى حماسهم لها، كانوا يتفقون باستمرار على الحفاظ على مقومات الهوية الوطنية من دين ولغة وتاريخ وعادات وتقاليد محلية. وحتى المثقفين الجزائريين الذين تجنسوا بالجنسية الفرنسية آنذاك، لم يبدوا اعتراضا على تلك المقومات الأساسية للهوية الوطنية.

ومع ذلك فالكتاب الجزائريون كانوا متفاوتين في الإيمان بفكرة "الاندماج"، وحتى حماسهم كان مختلفا فيما بينهم.« ويأتي شكري خوجة في مقدمة من كانوا يظهرون شكهم في جدوى الاندماج، بسبب رفض المحيط الاجتماعي له، سواء من قبل الجزائريين أو الأوروبيين، وعدم استعداد هؤلاء على الخصوص بقبول من يحاول الاندماج فيهم من الجزائريين»(أحمد منور،2007،ص:185).

وقد عبر عن ذلك الكاتب "شكري خوجة"، من خلال أحداث رواية "مأمون بداية مثل أعلى". وأكد ذات الموقف في رواية "العلج أسير البرابرة"، لكن هذه المرة بشكل أعمق بكثير من الموقف الأول. حيث عالج مسألة "الاندماج" ضمن أطر حضارية صرفة ، تتجاوز حدود تغيير الفرد الجزائري لانتمائه من مجتمع إلى مجتمع آخر، حيث يتعلق الموقف بتغيير العقيدة الدينية في حد ذاتها، بغرض الحصول على المزيد من الحرية.

ويبدي كتاب جزائريون آخرون، الموقف ذاته الذي أبداه الكاتب "شكري خوجة"، من مسألة الاندماج، دون الخوض في مسألة الخوف من نتائجه. حيث أن رفض الاندماج شكل وقتها تحديا فعليا، لاسيما لدى الشخصيات الروائية التي حاولت خرقه؛ من ذلك شخصيات

أعمالهم السردية، والتي مثلت في مجملها الأنموذج الفعلي للمثقف الجزائري المعاصر، الذي نال نصيبه من الثقافة الفرنسية. وامتلاكه لوعي عميق وفعال، وكفاءة مهنية مميزة، وقدرا وافرا من الأفكار الجديدة، التي تؤهله للتطور النموذجي، تبها لعوامل التطور التاريخي. والحقيقة أن هذا الإنتاج السردي يمنح القارئ، « على مستوى المضمون والبنية عل حد سواء، مشهد "ذهاب وإياب" مستمر، بين جانب وآخر، بين ما هو مؤكد وما هو نقيض له»(Ahmed Lanasri,1995,p :178).

فيصطدم بذلك البطل السردي مع خصوصيات مجتمعه الأصيل، وما كان يرزح تحته من وطأة الجهل والتخلف الاجتماعي والفكري؛ الشئ الذي أحدث مفارقة كبيرة بينه وبين أهل مجتمعه، لعدم التمكن من الاستيعاب والتجاوب مع أفكاره الجديدة.

من جانب آخر يصطدم البطل السردي، مع قيم المجتمع الاستيطاني الأوروبي، بكل ما يحمله من عوامل وأفكار الحضارة الغربية. وبكل ما يبديه إزائه من تجاهل كلي، وإقصاء لكيانه الإنساني بمصادرة وجوده. وعدم الاستعداد لتفهم ظروفه والتعاون معه، أو على الأقل تقدير مواهبه وكفاءاته ومؤهلاته. بالإضافة إلى إبداء روح العنصرية، وتبرير دواعي إقصائه وفق طروحاتها.

كانت هذه حال شخصيات تلك الروايات عموما، والتي تمكنت نصوصها من إبداع ملامحها إلى درجة المأساة الاجتماعية والحضارية. والحقيقة أن جماليات تصوير الشخصيات في تلك المتون الروائية، نتاج طبيعي لخصوصية الظرف التاريخي القائم في "الجزائر"، والذي مكن من الإدراك الموضوعي لطبيعة التفاوت الطبقي في المجتمع الجزائري وقتها، حيث يأخذ الوعي الاجتماعي للشخصية الروائية أبعادا جديدة في التشكل، وفق عوامل الصراع التي يختص الوعي التاريخي للشخصية الروائية بتصويرها، وفق معطيات الإدراك الجمالي لطبيعة العالم المحيط.

2-النماذج الروائية التأسيسية وإشكالية المضامين:

تتجلى بوضوح عملية إدراك العالم المحيط في روايتي "مأمون بداية مثل أعلى" و "العلج أسير البرابرة" للكاتب "شكري خوجة"، ورواية "بولنوار الفتى الجزائري" للكاتب رابح زناتي". حيث تبدو المأساة التاريخية والحضارية لشخصيات الروايات المذكورة، بشكل يثبت طبيعة الهوية الهجينة التي صنعتها الظروف التاريخية، وفق مقتضيات التحولات الواقعية التي كان يعرفها المجتمع الجزائري وقتها. وهي التي مكنت فيما بعد من طرح إشكالية الهوية والاندماج، ناهيك عن عوامل الصراعات الاجتماعية والطبقية التي حددت طبيعة الوعي التاريخي للإنسان الجزائرية فيما بعد.

وهي النماذج ذاتها التي تستخدم في أعمال" محمد ولد الشيخ" و"جميلة دباش" الروائية؛ فرغم مساعي الشخصيات السردية لتحقيق أهدافهم ومثلهم العليا، فإنهم لقاء ذلك تجد هذه الشخصيات الكثير من الصعوبات التي تعيقها عن تحقيق تلك الأهداف والطموحات.

شكلت ظاهرة الزواج المختلط في أكثرية النماذج الروائية المذكورة، موضوعا مشتركا حقق جانبا هاما من الطرح والإثراء. وهي الظاهرة التي كانت وقتها تبدو غريبة من الناحية الحضارية في المجتمع الجزائري، غير أن الموضوع شكل رؤية حركية بالنسبة للأحداث السردية لاسيما من الناحية العاطفية. وغالبا ما كانت تدور ظاهرة الزواج المختلط بين الجزائريين والفرنسيات، اللواتي ينتمين للقيم الحضارية للمجتمع الاستيطاني الأوروبي في "الجزائر".

ومع أن الظاهرة تبدو حيوية إلى حد ما، من حيث عناصر الإثارة على مستوى النسيج السردي لتلك الأعمال الروائية، لاسيما على مستوى التلقي بالنسبة للقراء؛ إلا أنها ذات دلالات اجتماعية وفكرية، يمكن لمسها بوضوح من خلال التمعن في طبيعة السياق الروائي.

حيث يمكن للقارئ أن يفهم بداية علاقات التكافؤ القائمة بين الفتى الجزائري والفتاة الفرنسية، من حيث المستوى الثقافي والتعليمي. لأنه وفق الظرف التاريخي القائم وقتها، يصعب إيجاد

مثل هذا النوع من التكافؤ. كذلك يكون الفتى الجزائري متشبعا بالأفكار والرؤى الحضارية الجديدة، التي أخذ نصيبا وافرا منها في المدارس الفرنسية والثانوية والجامعة، حول خصوصية الحياة العصرية، وأنماط التطور الحضاري والتاريخي. وربما هي وجهات النظر التي تنظر « إلى المدنية الغربية في يومها الراهن وتضرب صفحا عن أمسها الغابر، حين نبتت أول بذورها وتلونت في تطورها ونموها ألوان مختلفة. وما فتئت تتلون عبر السنين حتى استوت على لونها الحاضر، فحسبناها نباتا جديدا»(مالك بن نبي،2000،ص:80). فكان عليه الوعي بطبيعة الحياة الزوجية، التي تختلف كلية عن طبيعة الحياة الزوجية في مجتمعه الجزائري الأصلي.

كما أن ظاهرة الزواج المختلط كما قدمها بعض من الكتاب المذكورين، تعبير صريح عن رفض الزواج التقليدي الأصيل. حيث تكون المصالح الاجتماعية والمادية المشتركة بين أسرتي العروسين ضرورة مهمة للغاية، دون الاهتمام بمعاني وقيم الزواج الأخلاقية والاجتماعية، التي تهدف إلى إقامة المودة والحب، وتحقيق الاستقرار للزوجين.

هذا المعنى عبر عنه "مأمون" عندما رفض الزواج الذي اقترحه عليه والده، من ابنة أحد "القياد" الذين يعرفهم، رغم ما كانت عليه الفتاة من تعليم وتمكن في الموسيقى. «..لم يعد مأمون يريد نظرة الريف البدائية، ولا تقاليد وعادات العرب الخشنة تلك»(Chukri Khodja,1992,p :88). هو المعنى المضموني الذي عبرت عنه رواية "مأمون بداية مثل أعلى". وهو موقف على درجة من النظرة الحضارية الجديدة، وفق ما أملته طبيعة المتغيرات، التي أنتجت وعيا هو نتاج علاقات الصراع والمفارقة، بين القوى الاجتماعية الفاعلة في المجتمع الجزائري وقتها.

حيث تبدو المسألة متعلقة بقيمة وأهمية التحول الطبقي، الذي أراده والد "مأمون"، عندما اقترح عليه ذلك الزواج، من ابنة "قايد" يمثل قيمة ووجاهة اجتماعية، من خلال ما تحوزه تلك الفئة(فئة القياد) من امتيازات اقطاعية، صنعتها العقلية الكولونيالية (الاستعمارية) آنذاك. وهذا

ما يجعل السؤال مطروحا « أيمكن للمحتل الكولونيالي، أن يتخذ هذا الحاضر المزيف، لقطع الطريق على المستقبل؟..»(Albert Memmi,1973,p :124).

يختص الوعي من خلال الأنموذج بالأهمية الكلية للتفاوت الطبقي، الذي هو نتاج لظرف تاريخي واضح هو التواجد الاستعماري الفرنسي في "الجزائر". والفوارق الطبقية هي النتاج الحتمي، لعلاقات صراع القوى الاقتصادية والمادية داخل البنية الاجتماعية الواحدة. وفي هذه الحال، لا يمكن للوعي الخروج عن الحدود التاريخية التي حددتها أنماط العلاقات المادية، تبعا لمصادر الثروة والنفوذ. فكان لزاما هنا التفكير في آليات الصعود الاجتماعي الجديدة، وفق مقتضيات الظرف التاريخي الراهن، حتى لو تعلق الأمر بالتضحية ببعض القيم الإنسانية التي هي من مصاف المثل والأخلاق.

وهو الموقف ذاته الذي أرغمت عليه الشخصية الرئيسة في رواية" بولنوار الفتى الجزائري" للكاتب "رابح زناتي"، عندما قبلت بالزواج إكراها من ابنة أحد أصدقاء الوالد ولم تبلغ بعد سن الرشد. حيث كان حال هذه الشخصية« حال سائر المثقفين المسلمين، من خريجي المدرسة الفرنسية، الذين لا يتجرئون على الزواج المختلط الصعب المنال. فيكتفون ببنات بلادهم اللائي يبقين دائما، بعيدات كل البعد عن صورة رفيقة العمر التي طالما تمنوها وحلموا بها»((Rabah Akli Zénati,1945,p :132. ولا يتصور أن هذا الموقف على امتداد النص، يبقى على حاله مع تطور الأحداث؛ فبمجرد أن امتلك البطل الرئيس زمام أموره، يقوم بتطليق الزوجة الأولى التي أرغم على الزواج منها، بسبب الفارق الثقافي بينهما، ليتزوج من فتاة من شمال "فرنسا" تعرف عليها، ومتكافئة معه من الجانب الثقافي والتعليمي، جمعت بينهما رابطة الحب، فرأى فيها الزوجة المناسبة له، من حيث التفكير والتحرر (Rabah Akl Zénati,1945,p :202).

قد لا يتعلق الموقف هنا، بجوانب مادية صرفة تصوغ نمط تفكير الشخصية البطلة في الرواية؛ غير أنه لا يمكن الاعتقاد بأن موقف الشخصية يكون بعيدا عن التطور الحدثي، الذي هو نتاج التحولات النمطية للواقع الاجتماعي القائم.

وغالبا ما يأخذ الموقف تأويلا واضحا على أسس حضارية، تفسر بطبيعة الغزو الحضاري والثقافي "للجزائر" خلال المرحلة الاستعمارية، وهذا تأويل وارد؛ غير أنه ليس التأويل الموضوعي الذي يأخذ منحى تفسير الحقيقة الواقعية وفق ما ينبغي أن تفسر عليه، تبعا للتحولات التاريخية والاجتماعية المحيطة بالشخصية البطلة.

وهنا تبدو حرية الاختيار والانتصار لمبدأ الحياة، بالنسبة للشخصية الرئيسة على درجة من الأهمية، تبعا لما تمليه طبيعة الحياة الإنسانية، التي تسعى لاستقرار أسري واجتماعي. غير أن الرهان على الحياة في الأنموذج يفسر على نمط من تحول الوعي نحو الانتصار لخصوصية طبقية هي نتاج التداعيات الجديدة للواقع وقتها.

فالتكافؤ الثقافي والتعليمي لا يمكن أن يستقيم كدعامة للحياة الإنسانية لوحده، حيث يقتضي الموقف جوانب هامة من تحقق الاستقرار الأسري، وفق مقتضيات طبيعة حياة العصر التي تلح على التحرر الفكري، لكن من منظور ما تقتضيه التحولات التاريخية الجديدة، التي غالبا ما تكون النتاج الفعلي لتحولات الأنماط المعيشية التي تصنع وعي الفرد، خلال مرحلة تاريخية معينة.

تأخذ ظاهرة الزواج المختلط من جانب آخر، في نظر بعض الجزائريين الراغبين في الاندماج، خصوصية اجتماعية صرفة. ومع ارتباطها بوعي طبقي واضح، ورغبة البطل الروائي في تغيير وضعه الاجتماعي والتاريخي، فهي تأخذ أبعادا اجتماعية أعمق، غالبا ما ترتبط بالرغبة في تغيير الهوية والارتباط بالآخر الغربي بصفة دائمة، من خلال "الحقد على الذات الأصيلة". فيكون الزواج من أوروبية إمكانية اجتماعية لإثبات الذات الوطنية، بطريقة

غير الطريقة الأصيلة، وهذا ما يسمى بـ"رفض الذات وحب الآخر"، «وهما صفتان مشتركتان، في كل فرد جزائري يرغب في "الاندماج". وعادة ما ترتبطان ببعضهما البعض في محاولة تحررية يستفيد منا الراغب في الاندماج. حيث تكون صورة المستعمر أنموذجا للمشاعر المزاوجة بين الخجل من الذات القومية الأصيلة، والحقد عليها ورفضها كلية» (Albert Mémmi,1973,p :156).

ويمكن أن تأخذ أيضا ظاهرة الزواج المختلط، التي أثرتها مثل تلك الأعمال الروائية أنموذجا للتحرر الشخصي، والانفتاح الثقافي ، والتسامح الديني، والانتصار للنزعة الإنسانية. أو هو تصور حضاري لحل مشكلة "التعدد العرقي" ضمن المجتمع الكولونيالي. وهذا تصور أقرب ما يكون للطرح "الطوباوي" الساذج، الذي لا يحتكم للاعتبارات الواقعية والتاريخية، ذات التوجهات الموضوعية والسببية. لأن هذا الطرح قوامه الوصول إلى مجتمع جزائري هجين، يتجاوز جملة التناقضات التاريخية والحضارية، المستندة للحقائق السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتاريخية والدينية، وتجاوز طبيعة الصراع التاريخية والحضارية في المجتمع الكولونيالي.

لأنه من الواضح أن استقامة مجتمع على درجة من "الهجانة"، لا يمكن أن تتحقق نتيجة طبيعة الاستعمار في حد ذاتها، والقائمة أساسا على إقامة مجتمع وفق الأسس الطبقية الاقطاعية، المستغلة للإنسان الجزائري وثرواته معا. وهذا ما يجعل لمثل هذا الأنموذج من المجتمعات، يفتقد للأسس الاجتماعية السليمة، لأنه يفتقد لمعنى الانسجام الطبقي، الذي ينبغي أن يتحقق بين مختلف الفئات الاجتماعية، من خلال مبدأ تكافؤ الفرص وتحقيق قيم العدالة الاجتماعية.

ربما قدمت الروايات الجزائرية ذات الأطروحة الاندماجية، مشروع مجتمع تاريخي وسياسي جديد، غير أن هذا المشروع يفتقد لقيم الوعي التاريخي التي ينبغي لها أن تقوم، على أسس من الوعي بطبيعة وقيمة الوجود التاريخي للفرد الجزائري.

والاعتقاد بأن إمكانية بعث المجتمع الجزائري للوجود، من خلال اندماجه في المجتمع الأوروبي عبر ظاهرة الزواج المختلط، لا يمثل قيمة حضارية بالنسبة للفرد والمجتمع الجزائري معا. لأن عامل الأصالة يكون مفتقدا لكلا الطرفين، وفي ذلك رهان على آفاق تاريخية هجينة، لا تعطي القيمة الحضارية لحركية اجتماعية، تثبت وجودها التاريخي الدائم.

إن الإصرار على فكرة الاندماج من جانب آخر، هو إصرار على تفكك اجتماعي أكيد. لأن المجتمع المفكك من حيث بنائه الطبقي، لا يعطي إمكانية لصراع البنى الاجتماعية الذي يحقق القيمة التاريخية للفرد والمجتمع معا. وهنا لا يتأسس الوعي التاريخي للأفراد والجماعات وفق الأسس الموضوعية، التي عادة ما تقتضيها علاقات الصراع الطبقي، من أجل تحقيق الوجود الاجتماعي والتاريخي للأمة.

اختار الكاتب الجزائري "شكري خوجة" في روايته "العلج أسير البرابرة"(Chukri Khodja,1992) نقلة تاريخية للقارئ، من خلال استثمار وقائع التاريخ الجزائري خلال منتصف القرن الخامس عشر الميلادي، عندما حكم "الجزائر" وقتها "الأتراك" "العثمانيون" لأول مرة، فكانت فترة الحكم الأولى لـ"خير الدين بربروس باشا". فكانت أحداثها تجري بمدينة "الجزائر" أثناء البدايات الأولى لحكم العثمانيين. ومن خلال تلك الوقائع أراد النص، رسم صورة للمدينة والحياة الاجتماعية للناس آنذاك.

3–في تفسير الصراع الطبقي، وإشكالية الانتماء الاجتماعي:

مثلت رواية "العلج أسير البرابرة" الأنموذج الروائي الجزائري الأول، الذي تمثل التاريخ عبر مسار أحداثه السردية. لتكون بذلك الرواية الجزائرية الأولى باللغة الفرنسية، التي التفتت للتاريخ الجزائري التفاتة موضوعية، واضعة إياه على طاولة النقاش والإثراء. وفي ذلك إطلالة فعلية للقارئ بصفة عامة، على خصوصيات التاريخ الوطني، خلال فترة تاريخية هامة، عدت من صميم فترات الظل لاسيما على مستوى الحياة الاجتماعية للجزائريين خصوصا.

فتحي بوخالفة

ولأن السياق التاريخي للرواية كان خلال فترة العشرينيات من القرن الماضي، فقد عمد النص بالقارئ إلى أواسط القرن الخامس عشر الميلادي، ليحدث نقلة نوعية في الحوار الحضاري، وفق ما كانت تمليه الوقائع التاريخية لمطلع القرن العشرين، حيث يسجل النص وعيا تاريخيا بخصوصية التحولات التاريخية والاجتماعية، التي كان يشهدها الوسط الاجتماعي الجزائري، بعد أحداث الحرب العالمية الأولى، وما جرته من سلبيات على الوسط الاجتماعي الجزائري، ومن مآسي اجتماعية عانت منها الجماهير الشعبية الجزائرية العميقة،

نتيجة للتناقضات التاريخية والاجتماعية الحاصلة، التي صنعتها سلبيات الواقع الاجتماعي الجزائري، الذي كان نتاج ممارسات الأقليات الاقطاعية الكولونيالية، فكان لزاما أن يتشكل وعي تاريخي جديد بقيمة وأهمية الهوية الوطنية الجزائرية. لذلك كان إثراء التاريخ الوطني السابق،ومقارنته بوقائع الحاضر ميزة أساسية، لحوار ثقافي يجسد خصوصيات الوعي التاريخي الجديد، الذي بدأ يتشكل لدى الإنسان الجزائري وقتها.

عمد النص بداية لإحداث إدانة تاريخية للحكم العثماني في "الجزائر" آنذاك، حيث وصف ذلك الحكم بصفات بشعة للغاية، من بربرية، وقرصنة بحرية، ومصادرة محتويات السفن التجارية، وبيع ركابها كعبيد، أو الاحتفاظ بهم كرهائن انتظارا للفدية من ذويهم ، أو حكوماتهم. والحقيقة هي صفات تتماشى من الناحية التاريخية مع خطاب كولونيالي وجدت له المصداقية، من لدن الاستعمار الفرنسي ذاته.

حيث أن تجسيد تداعيات الصراع التاريخي، بين العثمانيين وغيرهم من الأوروبيين بتلك الصورة، لا يعتقد بأنها في صالح توجهات وطنية أصيلة، بحكم أن الصراعات التاريخية الأولى بين القوى الاستعمارية و"الدولة العثمانية" مبينة على وقائع التاريخ.

لذلك فنمطية الخطاب السردي، ليست على درجة من الإيجابية، بحكم أن الانتصار لخلفيات الصراع الكولونيالية، لا يقدم عملية التحول التاريخي، على نمط من الإيجابية التي يمكن أن يطلع بها الإنسان الجزائري.

في تفسير الطبقية والانتماء الاجتماعي–مقاربة تاريخية وجمالية لرواية "العلج أسير البرابرة" لشكري خوجة

ينفتح النص الروائي على مشهد مثير للقارئ، يتمثل في واقعة مهاجمة السفينة الفرنسية "الرجاء" من لدن رجال "الرايس" العثماني "كاتشاديابلو"، حيث ركز السرد على دخول السفينة ميناء "الجزائر" في مشهد أكثر درامية. ثم سرد وقائع نزول ركابها الذين بدا رجال الرايس العثماني، غاية في القسوة معهم. ثم مشهد الأسرى القدامي الذين جئ بهم ، لتفريغ السفينة من حمولاتها.

ثم كان انتقال السرد لتصوير جوانب من أحداث قصر الحاكم العثماني "خير الدين بربروس باشا"، وما كانت عليه سلوكات وتصرفات هذا الأخير، من غلظة وفظاظة، وقسوة المعاملة، وإنزال العقوبات القاسية ضد أقرب المقربين إليه أحيانا لخطأ بسيط.

يعرض النص في هذا السياق لحادثتين حدثتا في مساء ذلك اليوم، على نحو من التتابع الزمي التقليدي لسرد الوقائع. وهما حادثتان أكدتا بوضوح دموية الحكم العثماني في "الجزائر" وشدة قسوته وتعاليه، حيث انتهت كلتاهما بإصدار أمر بالإعدام ضد الشخصية المعنية. تعلقت الحادثة الأولى بالرايس "كاتشاديابلو" بذاته، الذي قدم صباحا يجر السفينة الفرنسية إلى ميناء "الجزائر"، فاستقبله الحاكم "خير الدين باشا" في قصره بحفاوة، وأقام له حفل عشاء تكريما له على انتصاره ذاك.

غير أنه وفي غمرة تلك الأجواء من الاحتفال البهيج، ثارت ثائرة "خير الدين باشا"، ضد الرايس "كاتشا ديابلو"، بسبب كلمة باللغة الإيطالية غير لائقة تفوه بها هذا الأخير على سبيل المزاح، وهو في حالة سكر، أتبعها بحركة من يده دلت على معناها. فأمر "خير الدين باشا" بتقييده وإعدامه في اليوم الموالي. ويسوق النص على لسان "خير الدين باشا" ما يثبت رغبة هذا الأخير في البطش وسفك الدماء، حيث يقول موجها كلامه لوزيره« إنني متعطش كثيرا لسفك الدماء. فمنذ خمسة عشر يوما كاملة والخازوق متوقف عن العمل، ولا بد له من العمل. و"كاتشاديابلو" سيغذي آلة الموت، فنفذ حالا».(Chukri Khodja,1992,p :17)

ولأن الرايس "كاتشا ديابلو" من رجالات "خير الدين باشا"(رغم أنه إيطالي الأصل)، –كما يصور ذلك النص–، فإنه لم يعد يشعر إزاء "خير الدين باشا" بأي احترام. وقبل سوقه إلى جناح الإعدام على يد الحراس، انهال على "خير الدين باشا" بسيل من الشتائم مذكرا إياه بغدره رفقة أخيه "عروج" بـ"سالم بن التومي" كبير أعيان مدينة "الجزائر"، وقتله في الحمام من أجل الاستيلاء على عرش إمارة "الجزائر"(Chukri Khodja,1992,p :16)، إلا أن "خير الدين باشا" ظل هادئا رابض الجأش، ولم يعبأ بما قاله الرايس "كاتشاديابلو"، بعدما أصدر أمر إعدامه.

تتعلق الحادثة الثانية بشخص "مصطفى لوعيل" الذي كان يشغل منصب مفاوض تجاري، وهو منصب راق وقتها. حيث انتقد هذا الأخير المعاملة السيئة للأسرى المسيحيين، عندما كان يرقب المشهد على رصيف ميناء "الجزائر" رفقة أحد أعيان المدينة وهو "خوجة باش أحمد" المكلف بتوزيع العبيد الأسرى لتفريغ حمولة السفينة الفرنسية. ولما بلغ ذلك النقد "خير الدين باشا" أمر بإعدامه هو الآخر. حيث أعدم رفقة الرايس "كاتشاديابلو" في صبيحة اليوم الموالي بآلة الخازوق التي مزقت أحشائهما في وقت واحد (Chukri Khodja,1992,p :26).

يعتقد أن النص بتصوير هذه المشاهد "التراجيدية"، سعى لتقديم صورة بشعة عن الحكم العثماني في "الجزائر"، نتيجة سياق تاريخي سائد وقتها.

وربما لجوء النص للتركيز على مثل تلك المشاهد بداية، كان بدافع تقديم نمط ما من أنماط التطور التاريخي السلبي، الذي كانت تشهده "الجزائر" في البدايات الأولى لحكم العثمانيين.

ومع أن النص لم ينتصر لحتمية تاريخية تخص هوية الإنسان الجزائري تحديدا، فقد كان يبدو منتصرا لحتمية تاريخية استعمارية هي من صميم، العداء الأزلي بين القيم الحضارية الغربية والقيم الحضارية المحلية.

غير أن هذه الرؤية تبدأ في الخفوت نسبيا، عندما يبدأ السرد بتصوير الحياة الاجتماعية العادية للناس. وهي حياة يسودها النظام والاستقرار الأمني، تنعم بالرخاء والسعادة، من خلال أسواقها التجارية النشطة، ومتاجرها المليئة بمختلف صنوف السلع، ومدارسها المفتوحة، ومساجدها التي تشهد عمارة كبيرة بالمصلين، والحقول الفلاحية التي تعج بالفلاحين والعبيد، الذين يعكفون على الزراعة وجني الثمار والغلال،...الشئ الذي يعكس حياة الاستقرار والطمأنينة.

وبمتابعة الحوار الذي دار بين "خوجة باش أحمد" و"مصطفى لوعيل"، يفهم القارئ على لسان هذا الأخير، موضوع نشأة وبدايات "القرصنة" البحرية في العالم، محاولا بذلك النص الإشارة صراحة، إلى أن عمليات القرصنة البحرية، هي صناعة فرنسية ظهرت سنة 1400م، ثم انتشرت في كامل أنحاء "أوروبا"، نتيجة لرعاية الحكومات الأوروبية لتلك الاعتداءات البحرية. ثم تطورت بعد اكتشاف "القارة الأمريكية"، حيث كان القراصنة الأوروبيون يهاجمون السفن البحرية المحملة بالذهب، والعائدة من "أمريكا"(Chkri Khodja,1992,p :22)، مما يثبت–حسب النص–، أن "القرصنة" البحرية من صنع الأوروبيين.

إن الازدواجية في التعبير على امتداد النص الروائي، سبيل فني مكن الرواية من تحقيق عملية الايصال المضموني للقارئ، وفق ما يعتقد به النص من القيم الحضارية الأساسية، التي كان ينبغي أن تنصف، لاسيما أن الرواية رواية تاريخية إلى حد ما.

ولعل السياق التاريخي الذي كتب فيه النص، أعطى الإمكانية الفنية ، لتحقيق المزيد من المشروعية التاريخية والحضارية للانتصار لقيم الحضارة العربية الإسلامية، وفق ما تملية تقاليد الدين الإسلامي، في معاملة الأجانب من الأسرى والعبيد آنذاك.

وحتى الموقف السلبي الذي اتخذه النص من الأتراك العثمانيين بداية، لم يتوقف عنده لفترات طويلة، حيث كان الانتصار لمجد "الجزائر" و"الدولة العثمانية"، خلال عهود السيادة

والسؤدد في "البحر الأبيض المتوسط". وهنا يعمد النص للتركيز بشكل مباشر، على القيم الحضارية الإسلامية التي كان يتعامل بها الجزائريون والأتراك على حد سواء، مع غيرهم من الأسرى والعبيد الأجانب المسيحيين. من ذلك شخصية" إسماعيل حاجي" نقيب الصاغة في مدينة "الجزائر"؛ هذا الذي صوره النص على درجة من الإنسانية في معاملته للأسير "برنار لوديو". وشخصية "إسماعيل حاجي" على مستوى النص شخصية ثرية وذات وجاهة في المجتمع، ومن أصول تركية برجوازية. لها من المكانة والإمكانات ما يجعلها شخصية، في غاية التطاول والتميز. غير أنه فضل التواضع مع الأسير الأوروبي، اتباعا لقيم وتعاليم الدين الإسلامي، وعرض عليه الدخول في الإسلام لقاء حريته، وجعله مساعدا له في أعماله، بالإضافة إلى مزايا اجتماعية واقتصادية أخرى. يقول مخاطبا إياه « أنظر حولك، ألا ترى بأن المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام أكثر سعادة مني؟.. الكل ينال التقدير والاحترام، ولا يجرؤ أحد على الاعتداء على كرامتهم وحقوقهم»(Chukri Khodja,1992,p :44).

تبدو إشارة النص هنا واضحة، وهي الانتصار لقيم حضارية وتاريخية ، اختص بها الدين الإسلامي. وهو الدين الذي دان به الجزائريون والأتراك العثمانيون على حد سواء. ولأن القوة كانت في صالح "الجزائر" و"الدولة العثمانية" آنذاك، كان لزاما أن ينعكس ذلك المعطى التاريخي على طبيعة البناء الاجتماعي في "الجزائر".

وما يفهم من الأنموذج، أن البنية الاجتماعية الجزائرية وقتها، خضعت لتمازج اجتماعي هو من صميم الصراع التاريخي والعسكري بين "الجزائر" و"أوروبا"، الشئ الذي مكن من جود العبيد والأسرى والجواري في المجتمع الجزائري، والذين هم جميعا من أصول أجنبية أوروبية.

هذا يؤكد من جانب آخر، وجود تفاوت طبقي حتمي، صنعته التحولات التاريخية التي هي نتاج أنظمة إنتاجية معينة، تفسرها عادة علاقات الإنتاج وأنماط التوزيع في المجتمع.

والعلاقة القائمة بين السيد والعبد بحسب الأنموذج المقدم، تقوم على دعم خصوصية النمط البرجوازي القائم، وفق ما تمليه طبيعة النمط المادي الذي كانت تتميز به ، بعض

الأسر الجزائرية خلال مرحلة الحكم العثماني للبلاد. وهو نمط غالبا ما يقوم على الزراعة والتجارة، بالإضافة إلى ما تجنيه القوات البحرية من إتاوات على السفن الأوروبية، لقاء حمايتها من القرصنة الأوروبية. وهي الإتاوات التي صارت فيما بعد، مصدرا من مصادر ثراء مدينة "الجزائر".

هذا النمط الاقتصادي الذي قام على تلك المصادر المادية، مكن من تحقيق صورة هامة لطبيعة البناء الاجتماعي، التي هي نتاج الطبيعة الإنتاجية للبنية الاقتصادية القائمة. وهذا يؤدي إلى وجود وعي تاريخي يكون صورة آلية، لخصوصية التركيبة الاقتصادية والاجتماعية التي ميزت وعي الإنسان الجزائري وقتها.

يثبت كلام شخصية "إسماعيل حاجي" وعيا تاريخيا، بقيمة وأهمية المعاملة الإنسانية السليمة. وفي ذلك تقدم الشخصية السردية أنموذجا نوعيا لتعامل حضاري، يقتضي تحقيق كرامة الإنسان أولا والحفاظ على وجوده كإنسان. ومع أن الشخصية تحافظ دائما على انتمائها الطبقي البرجوازي، فهي تدعم بذلك انتماء حضاريا ينتصر للقيم التاريخية والأخلاقية، التي تميز بها الدين الإسلامي.

والملفت للنظر أن قيم الدين على مثاليتها، فهي تقترب هنا كثيرا من التحقق الواقعي، بحيث يمكن الإقرار بموضوعية بواقعية تلك القيم الدينية، التي هي من صميم الحفاظ على الوجود الإنساني أولا، قبل التفكير في جوانب أخرى للحياة. وهذا ما يثبت إيجابية الوعي التاريخي، للشخصية السردية في محاورتها لشخصية "برنار لوديو".

يأخذ التطور الاجتماعي أبعادا جديدة، على مستوى البنية السردية، بشكل يثبت وعيا جديدا بقيمة وأهمية الارتقاء الاجتماعي. وهو التطور الذي أثبتته طبيعة العلاقة بين السيد والعبد، على مستوى أسرة "إسماعيل حاجي". فالنمط البرجوازي الاقطاعي لا يتوقف عند حدود الفوارق القائمة بين السيد والعبد، إنما تتجاوزه إلى اعتبارات أخرى حددتها قيم الدين الإسلامي، مع

وجود علاقة عاطفية جديدة بين "برنار لوديو" والفتاة "زينب" ابنة "إسماعيل حاجي" Chukri) (Khodja,1992,p :54. وهي العلاقة التي يمكن أن تفسر على نمط من التحفظ الطبقي، باعتبار النهاية التوفيقية التي آلت إليها. كما تفسر من منظور المحافظة على الانتماء الطبقي، من جانب ما أبداه "إسماعيل حاجي" من غضب إزاء "برنار لوديو"، لأن هذا الأخير لا يرقى إلى مصاف المكانة الاجتماعية التي هو عليها، حتى يفكر في ابنته مرة واحدة.

تتبني خصوصية الوعي الطبقي في الأنموذج، على طبيعة العلاقة القائمة بين وعي الإنسان ووجوده الاجتماعي. فشخصية "إسماعيل حاجي" ترى في الحفاظ على انتمائها الطبقي، سبيلا أمثلا لتحقيق وجود اجتماعي أفضل، و من خلال ذلك يتم تحقيق وجود تاريخي للقيم الطبقية والبرجوازية التي كانت تميز المجتمع الجزائري آنذاك. فهو يعترض على العلاقة العاطفية القائمة بين ابنته "زينب" وعبده "برنار لوديو"، نتيجة الفوارق الطبقية بين الاثنين.

غير أن التخلي التدريجي عن الوعي الطبقي، نتيجة تدخل "لطيف أفندي" صديق "إسماعيل حاجي" مكن من تحقيق موازنة نوعية، على مستوى العلاقة القائمة بين السيد والعبد. وهذا ما جعل العلاقة العاطفية بين "زينب" و "برنار لوديو" تنتهي بالزواج احتكاما لقيم الشريعة الإسلامية، لاسيما بعدما أعتق "إسماعيل حاجي" "برنار لوديو" لاعتناقه الإسلام وتخليه عن ديانته المسيحية، مع أن هذا الاعتناق في الحقيقة جاء نتيجة ضغوطات مارسها ناظر عمال "إسماعيل حاجي" على "برنار لوديو"(Chukri Khodja,1992,p :54). مما يجعل قيمة الوعي الحضاري بقيمة وأهمية الدين الإسلامي، بالنسبة لـ"برنار لوديو" على شيء من التردد. وإثبات من جانب آخر إيجابية البطل الروائي في الكفاح من أجل تغيير وضعه الطبقي.

قد تكون شخصية "برنار لوديو" على جانب هام، من الوعي التاريخي بوضعها الطبقي. لذلك قدمت على مستوى البنية السردية للرواية، من خلال كونها مجرد خادم لأسرة "إسماعيل حاجي"، وفق ما أملته وقتها التقاليد البرجوازية التي كانت عليها الأسرة الجزائرية. ولكونه شابا مكتمل الرجولة، وخدمته كانت داخل الأسرة بالذات، كان وضعه ذاك سببا مباشرا

في وجود علاقة عاطفية بينه وبين "زينب" ابنة "إسماعيل حاجي". ولا يفصح النص صراحة إن كانت تلك العلاقة العاطفية، سبيلا لتحقيق امتيازات اجتماعية أم لا؟.. خصوصا أن إسلام "برنار لوديو" كان بدافع ضغوطات من "إسماعيل حاجي"، عن طريق ناظر عماله.

في هذه الحال يمكن أن تطرح مسألة الرقيب الاجتماعي، بشأن موضوع زواج "برنار لوديو" من "زينب". وتجد هذه المسألة مشروعيتها الاجتماعية، في كون طبيعة المجتمع الجزائري المتسمة بالتدين الإسلامي والمحافظة الأخلاقية والسلوكية، على نقيض ما هي عليه الأخلاق الغربية تماما. في هذا الصدد قد تكون مسألة الزواج من الاثنين كانت بدافع الرقيب الاجتماعي، والتي كانت مشروطة باعتناق "برنار لوديو" الإسلام. وهذا وارد من ناحية السياقات الحضارية والتاريخية للمجتمع الجزائري. غير أن الجانب الواقعي المحتكم للمعايير الموضوعية لا يثبت بالضرورة، أهمية الرقيب الاجتماعي، بقدر ما يحتكم لخصوصية الدواعي الاجتماعية والطبقية، التي أدت لوجود رابطة الزواج الشرعي بين "برنار لوديو" و"زينب". في هذه الحال يمكن تجاوز مختلف المعطيات المثالية و"الطوباوية"، والاحتكام لطبيعة الوعي الموضوعية، التي تؤكدها مختلف العلاقات التاريخية والاجتماعية المتداخلة في المجتمع الجزائري، والتي تحدد أنماطها العوامل المادية والطبقية.

يكون الوعي التاريخي الاجتماعي لدى شخصية "برنار لوديو"، محققا لمشروعيته وفق مقتضيات العوامل الاقتصادية والطبقية التي كان عليها المجتمع الجزائري من قبل، والتي جعلت منه مجرد عبد خادم لسيده "إسماعيل حاجي". وحتمت رابطة شرعية كهذه بحجم الزواج، أن تعطي إمكانية تحول طبقي فعلي بالنسبة لـ"برنار لوديو"، وفق ما تمليه طبيعة التحولات التاريخية والمادية للمجتمع الجزائري. فمشروعية الوعي التاريخي لدى هذه الشخصية، تأخذ أبعادها الموضوعية بحسب خصوصية وضعها الطبقي الذي اقتضى التغيير، خلال تلك الفترة التاريخية الهامة من تاريخ "الجزائر".

فتحي بوخالفة

بمتابعة أصناف الشخصيات السردية على مستوى الرواية، تقف شخصيات أخرى إضافية على مستوى من الاتزان والتحضر، من ذلك شخصية "لطيف أفندي"، ذات الأصول التركية العثمانية.

يكتشف القارئ هذه الشخصية، من خلال حديثها مع شخصية "إسماعيل حاجي"، الذي أفصح عن فكر نير، ومنفتح، ومتحرر، وصريح. فقد بدا "لطيف أفندي" كشخصية سردية ببعد نظر فعلي ورأي صائب(Chukri Khodja,1992,p :53/54)، بموقفه الإنساني الذي أبداه إزاء الأسير "برنار لوديو"، عندما أشار على صديقه "إسماعيل حاجي" بدخول الأسير الإسلام وتزويجه من ابنته "زينب". مما يعني أن الخصوصية الطبقية تنتفي في هذه الحال، لأن شخصية "لطيف أفندي" لو كانت على شاكلة الأتراك العثمانيين البرجوازيين الآخرين، لأشار عليه بقتله أو جلده على الأقل، لاسيما أنه في منزلة العبد الذي لا يمتلك حقوقا في المجتمع.

عرض النص قبل ذلك شخصية إيجابية هي شخصية "مصطفى لوعيل"، الذي أمر حاكم الجزائر العثماني "خير الدين باشا" بإعدامه، لأنه عارض سوء معاملة الأسرى الأجانب بميناء "الجزائر"، وقت اقتياد السفينة الفرنسية "الرجاء" إلى هناك، من لدن الرايس "كاتشاديابلو". وقد عرضه النص، كشخصية متزنة متحضرة، على درجة من المهابة والوقار، يتمتع بصفة مفاوض تجاري كبير.

وعرض شخصية متزنة ومعتدلة بحجم شخصية "مصطفى لوعيل"، من لدن النص لم يكن بمحض استعراض خصائص لشخصية متزنة وقورة؛ إنما يمكن هنا الإحالة على شيئين اثنين هما: خصوصية السياق التاريخي الذي عاشته الشخصية، وطبيعة الوعي التاريخي والطبقي الذي تميزت به الشخصية.

في الجانب الأول يفهم القارئ جيدا، أن شخصية "مصطفى لوعيل" شخصية متحضرة وذات وعي تاريخي تقدمي إلى حد ما. فهي بذلك عاصرت سياقا تاريخيا تميز بحكم الأتراك العثمانيين "الجزائر" آنذاك. غير أن طبيعة الحكم العثماني "للجزائر"، كانت استبدادية من

جانب التميز البرجوازي للعنصر التركي العثماني على الجزائريين وغيرهم. لذلك كانت مرحلة لسفك الدماء وقهر المعارضين من الناس، على اختلاف انتماءاتهم وأعراقهم.

وهذا ما ميز طبيعة السياق التاريخي السلبية، من حيث عملية تطوره وعلاقاته المتشابكة، بطبيعة البنية الاجتماعية للمجتمع الجزائري وقتها.

ويفهم من الجانب الثاني، خصوصية الوعي التاريخي الإيجابي لشخصية "مصطفى لوعيل"، التي عارضت سوء معاملة الأسرة الأوروبيين، على اختلاف أعراقهم ودياناتهم بدافع إنساني صرف.

غير أن هذا الدافع الإنساني يفسر على أساس، النمطية الإيجابية لطبيعة الوعي التاريخي الذي تميزت به الشخصية السردية، نتيجة رفضها لجانب معين من جوانب الظلم الاجتماعي. وفي ذلك معارضة طبقية صريحة، ورفض لنمط استبدادي هو تمهيد واضح لنظام اقطاعي عبودي.

4–في تفسير عوامل الصراع التاريخي:

في معرض الحديث عن الوقائع التاريخية التي تضمنها النص، يرد ذكر حملة إمبراطور "إسبانيا" "شارل كان" على "الجزائر" سنة 1541م، وهي حملة شهيرة وقائعها مبينة على صفحات التاريخ. وتزامنت وقائع هذه الحملة مع وقائع وأحداث الرواية التاريخية، حيث يرد هذا الأنموذج« لأن الجهات الحاكمة في بربروسيا تمارس القرصنة بإصرار ودون عقاب. وبرغبة مبطنة في غزو العالم المجاور، أعد شارل كان حملته البحرية المعروفة على الجزائر سنة 1541»(Chukri Khodja,1992,p :118).

يتعلق الحدث السردي من خلال الأنموذج، بحملة بحرية أوروبية لغزو "الجزائر" لدواعي حضارية. وهي الدواعي التي غالبا ما يبرر بها الغزاة غزوهم المتكرر لبلدان العالم، بغرض استضعاف شعوبها، واستغلالها واستغلال ثرواتها.

غير أن الدواعي الحضارية المبررة لعملية الغزو، لا تقف على شيء من الحياد التاريخي، بحكم أن الأغراض المعروفة لعمليات الغزو الاستعماري بشكل عام، هي الرغبة في التوسع على حساب أراض أخرى، وإقامة أنظمة اقتصادية هي أقرب ما تكون من الاقطاع، واستغلال الإنسان ومصادرة الثروة.

فهذه الحيثية التاريخية المذكورة، هي نتاج طبيعة الوعي التاريخي المتحول، الذي حاول مقاربة التحولات التاريخية السريعة التي كانت تعرفها "الجزائر" وإنسانها آنذاك. وهي المقاربة التي تفسر عوامل الصراع الطبقي الذي غالبا ما يكون نتيجة لحتميات الصراعات التي تجد تفسيراتها، من خلال تأمل خصائص البنية الاقتصادية للمجتمع، القائمة على طبيعة علاقات الإنتاج وأنماط التوزيع في المجتمع.

وفي إثراء النص لتطور المسار التاريخي "للجزائر"، يقدم نماذج حية للمقاومة الشعبية الجزائرية، ضد قوات "شارل كان" الإسبانية في محاولاتها المتكررة لغزو "الجزائر". مما أدى إلى الإبراز الواضح والصريح لتكاثف الشعب الجزائري في مقاومته مع الأتراك العثمانيين ضد القوات الغازية، خصوصا أن مدافع جيوش "شارل كان" كانت تقصف مدينة "الجزائر" دون تمييز بين سكانها من جزائريين وأتراك عثمانيين وغيرهم من الأجناس الأخرى.

والملاحظ أن النص في وصفه لتطورات الحدث التاريخي، كان يستخدم المصطلح الأجنبي Le peuple وهو الذي يرادف المصطلح العربي "الشعب"، كتعبير عن المقاومة الشعبية الجزائرية، بعيدا عن مصطلح La population الذي كان يستخدمه المستوطنون للتعبير عن "التجمعات السكانية"، مما يثبت أنهم لا يعترفون مطلقا بوجود شعب جزائري(أحمد منور،2007،ص:198).

وعلى النقيض من ذلك فرواية "العلج أسير البرابرة" في استخدامها للمصطلح الأجنبي Le peuple إثبات صريح لخصوصية الوعي التاريخي للنخبة الثقافية الجزائرية، خلال سنوات العشرينيات من القرن الماضي، بقيمة وأهمية الإيمان بوجود "شعب جزائري" قائم بذاته وهويته

وحضارته وتاريخه، مشكلا بذلك أمة حقيقية لها وجودها التاريخي، ومسجلة لحضورها في الزمان والمكان معا.

إن قيمة الوعي التاريخي على مستوى رواية "العلج أسير البرابرة"، تعطي الأهمية لجدلية التحولات التاريخية والاجتماعية المتأسسة على حيثيات الصراع، بين القوى المتصارعة من أجل تحقيق المزيد من الوجود التاريخي، وإثبات الذات في الوقت نفسه. من هنا تبدو غزوات الإسبان "للجزائر" على درجة من الإثبات الواقعي، للقوى التاريخية المتصارعة، وفق مبدأ "نفي النفي". ويمكن الفهم في هذه الحال، أن عوامل الصراع هي الأنموذج الأساسي، المحدد لعلاقات الصدام بين القوى المتصارعة، من حيث محاولة كل طرف إثبات ذاته، أو نفي الآخر لحسابه.

ونتيجة لحدث الغزو التاريخي، مثلت عوامل الصراع في الرواية، الأساس الفعلي لتطوير معطى الأحداث التاريخية وفق ما تمليه علاقات القوى المتصارعة فيما بينها، والتي غالبا ما تحركها دواعي الدفاع عن مصالحها الاقتصادية المادية الخاصة بها، أو كسب المزيد من المصالح الاقتصادية، من خلال السيطرة على مصادر إضافية للثروة واستغلال الإنسان.

وفي تطور علاقات الصراع ، يبرز النص نماذج هامة من المقاومة الشعبية الجزائرية، ضد جنود الغزو الإسباني.« فبعد رحلة بحرية طويلة ومتعبة، لم يتمكن الجنود من أخذ نصيبهم من الراحة. فقد كان المور "الجزائريون" يطلقون عليهم النار من بنادقهم القوية، ليفسدوا عليهم سكينة نومهم»(Chukri Khodja,1992,p :123). هو أنموذج حي لإثبات طبيعة تطور الصراع بين القوى التاريخية المعادية فيما بينها. وهنا يمكن الحديث عن وعي ثوري شعبي، صنعته الجماهير الشعبية الواسعة في "الجزائر" آنذاك، التي تجاوزت حدود التغيير التاريخي، إلى آفاق أخرى من الدفاع عن الخصوصيات الحضارية، من خلال مقاومة قوى أجنبية معادية.

وخاصية الصراع من خلال الأنموذج، تتحدد وفق إمكانات التحول التاريخي، من خلال عوامل إدراك طبيعة الوجود الطبيعي لكلا الطرفين. فرؤية "الإسبان" للغزو، هي كسب المزيد من الأراضي والثروات المادية، وضمان استغلال أكبر لقوى وجهود الإنسان الجزائري. فالغرض يبقى واضحا، في الرغبة في إقامة نظام كولونيالي(استعماري)، يسعى لتأسيس نمط اقتصادي قائم على الاقطاع والاستئثار بالثروة. فطبيعة الوعي التاريخي لدى الأجنبي قائمة، على الاستيلاء على المزيد من مصادر الثروة، بهدف الإبقاء على علاقات إنتاجية وأنماط للتوزيع، هي من صميم الأنظمة الاقطاعية الاستغلالية.

ورؤية الجزائريين في صد الغزو والعدوان، هي من صميم الوعي بأهمية إثبات وجودهم تاريخيا، من خلال الدفاع عن أراضي حددت طبيعة هويتهم وانتمائهم الحضاري. فهم بذلك يريدون الإبقاء على وجودهم التاريخي، من خلال قناعاتهم الحضارية والدينية، التي تجعل عامل الصراع ضد الأجنبي، من صميم ما سمي بـ"فريضة الجهاد". وهو المعنى الواقعي لمصطلح "الكفاح"، الذي نجح تاريخيا في تعبئة القوى الشعبية، من أجل رد الغزو والعدوان، وتحقيق الوجود التاريخي "للجزائر" وقتها.

يأخذ الوعي التاريخي في النص، على لسان "حسن آغا" قائد جيش المقاومة الشعبية، معنى مميزا عند الاعتقاد بأن الصراع ضد الأجنبي الغازي، كحتمية تاريخية وحضارية أحيانا، هي من صميم القوى الطلائعية للشعب الجزائري المتحالف مع الأتراك العثمانيين، لا من صميم الصدف وعوامل الطبيعة. «بلى !.. إنني أرغب في أن يتمكن هؤلاء الجنود المتهورون من عبور أراضي الحراش والحميز، والذهاب وراء البحار ليخبروا شعوبهم وأهاليهم، أن بلدنا لا تحميه قدرة الله فحسب ولا لسهوله الوعرة المسالك، ولا وديانه الموبوءة، إنما هو محمي كذلك بشعب شجاع، لا ترهبه الأخطار ولا الموت المحقق»(Chukri Khodja,1992,p :126).

في تفسير الطبقية والانتماء الاجتماعي–مقاربة تاريخية وجمالية لرواية "العلج أسير البرابرة" لشكري خوجة

في كلام شخصية "حسن آغا" التفاتة طيبة لقيمة وأهمية الوعي بالواقع. لذلك فالقارئ يعرف جيدا من كلام الشخصية، نمطا تقدميا للوعي التاريخي، يقوم أساسا على الوعي بأهمية الواقع وفهم النمط الموضوعي لصناعة التاريخ، وتحقيق اللحظات الحاسمة فيه.

وإن كان فشل حملة "شارل كان" مثل تحولا تاريخيا وقتها، في تاريخ "الجزائر". ومنح الوعي الجزائري أهمية قصوى في فهم طبيعة التحول الإيجابي للتاريخ؛ فالشخصية السردية هنا تلفت نظر القارئ، لأهمية التخلي عن الأقدار والصدف، في صناعة التاريخ. حيث يفهم التاريخ بحسب الوعي التقدمي، الذي يمنح الواقع بكل ملابساته وتعقيداته، أهمية صناعة اللحظات التاريخية التي تمثل تحولا جذريا في حياة الأمم والشعوب.

من هنا لم تقم الشخصية السردية بإنكار انتمائها الحضاري والديني، كما لم تقم بتجاوز خصوصيات الواقع الجزائري؛ ومع ذلك فقد انتصرت بالدرجة الأولى، لدور الإنسان في التأثير في واقعه، كون "الجزائر" تحمى بأبناء شعبها أولا. وفي ذلك تأكيد لقيمة الوعي بطبيعة الوجود التاريخي والاجتماعي، الذي يؤثر في علاقات الأفراد بالحياة الاجتماعية. ولعل هذا ما يؤكد الخاصية التقدمية للإنسان الجزائري آنذاك، من خلال ما يختص به في فهم أهميته وقيمته في التأثير في وجوده التاريخي والاجتماعي.

قد تكون أحيانا حملات الغزو الكولونيالي ذات قيم إنسانية، حتى لو تكللت بهزيمة حقيقية. من ذلك هزيمة حملة "شارل كان" لغزو "تونس" سنة1535م، حيث يشير النص، بأن هذه الحملة لم يخرج منها "شارل كان"« إلا بنتيجة إيجابية فريدة، بقيت ذكرى لدى الناس، وهي التمكن من تحرير عشرين ألف من المسيحيين الذين كانوا في الأسر» Chukri) (Khodja,1992,p :118. وهو الحدث التاريخي الذي مثل معطى إنسانيا، رغم سلبيته من حيث كونه رؤية كولونيالية جديدة، ضد دولة مغاربية شقيقة.

وإن الجانب الإنساني في الأنموذج يعطي القيمة للإنسان، مهما كان عرقه أو ديانته، فذلك يختص بطبيعة الانتماء الحضاري للأسرى المحررين، من باب كونهم ينتمون لنمط حضاري واحد، أنهم أوروبيون أجانب من ديانة واحدة.

وربما يؤدي الدين في هذه الحال ، خاصية هامة في بلورة الحدث الروائي، على نسق من التصعيد الذي يؤكد الصراع الحضاري، بين قوي معادية من حيث الأصول والانتماء، فهذا يمنح الحدث التاريخي من التفسير، على أساس كونه حدثا يعطي القارئ إمكانية الإحاطة بطبيعة الصراع التاريخي، الذي من مقتضياته الوعي بخصوصية الخلفية التاريخية للأسرى المحررين، قبل التفكير في انتمائهم الحضاري والديني.

إن الموضوع الأساسي الذي عالجته رواية "العلج أسير البرابرة"، هو "التجنس" و"الاندماج"، بحكم أن كلا المصطلحين يلتقيان حول الموضوع الجوهري للرواية، وهو "الاندماج" مع "الآخر" أو التعايش معه. وهو جانب على درجة من الحساسية، كون الآخر يمثل هوية غربية لا تمت بصلة لعوامل ومقومات الحضارة التي تنتمي إليها "الجزائر" والشعب الجزائري.

ومع أن الموضوع عولج في أساسه من الناحية التاريخية الصرفة، فهو بذلك يحقق صداما نوعيا مع ثقافة وحضارة الآخر، نتيجة الفوارق الحضارية والتاريخية بين "الجزائر" و"فرنسا". وهذا ما مكن من إنتاج صراع نوعي قوامه عوامل تاريخية صرفة، هي من صميم الرغبة في إلغاء الآخر والإبقاء على الذات المنتصرة مهما كانت هويتها.

مع أنه من الناحية الموضوعية، لا تستقيم مسألة الصراع وفق العوامل الحضارية بمفردها، إنما تتجاوز هذه العوامل إلى حدود الرغبة في إنشاء المزيد من التجمعات البشرية، على أسس طبقية هي نتاج وضع اقتصادي يقوم على آفاق ضيقة، وفق عقلية كولونيالية اقطاعية. لذلك يبقى الأساس المادي الاقتصادي، هو المحرك الفعلي لعلاقات الصراع، بين

الأمم والشعوب تاريخيا، وفق ما تمليه المصالح الطبقية القائمة على علاقات الإنتاج وأنماط التوزيع في المجتمعات المستعمرة (بفتح الميم).

الذي يمثل موضوع الاندماج في النص، هو الأسير "برنار لوديو". ومع أن أحداث الرواية تعود إلى أواسط القرن الخامس عشر الميلادي، فالمسألة تبدو عكسية تماما بالمقارنة مع السياق التاريخي الذي صدرت فيه رواية "العلج أسير بلاد البرابرة" وهو سنة 1929م، وهو تاريخ نهاية العشرينيات من القرن العشرين للميلاد، عندما كانت مسألة "الاندماج" أو "الإدماج" في المجتمع الفرنسي الكولونيالي مطروحة بحدة على الجزائريين وقتها.

ويطرح النص الروائي الظروف التاريخية التي جعلت الأسير "برنار لوديو" يعتنق الإسلام، وهو الاعتناق الذي يبدو أنه لم يكن عن إرادة صريحة منه، أو حتى اقتناع. لأن الاقتناع جاء نتيجة ضغوط من لدن سيده "إسماعيل حاجي" عن طريق ناظر عماله. وكان إصرار "إسماعيل حاجي" أكثر على اعتناق "برنار لوديو" الإسلام من أجل تزويجه بابنته "زينب" لتعلقها به. وهنا لا يتصور أن شخصية "برنار لوديو" على قناعة فعلية بما أقدمت عليه من اعتناقها للدين الإسلامي، وتركها لديانتها المسيحية التي نشأت عليها في "أوروبا". ولعل هذا ما جعل هذه الشخصية، مع تطور الأحداث الروائية، تقع ضحية انفصام حقيقي على مستوى الشخصية، نتيجة أحاديثها النفسية الداخلية، مما أودى بحياتها فيما بعد، بعد إصابتها بالجنون.

وليس بعيدا أن تكون شخصية "برنار لوديو" قد فكرت في استعادة وجاهتها الاجتماعية، بالتخلص من العبودية بالهرب عبر البحر، أو الفدية التي كانت باهضة عليها وقتها، فلم يكن أمامها غير إمكانية "الاندماج" باعتناق الدين الإسلامي، وأداء صلاة المسلمين وغيرها من الطقوس الأخرى، وتحريم على نفسه ما اعتاد القيام به من قبل، تماشيا مع تعاليم الدين الإسلامي. وهذا ما جعل نتيجة الاندماج تعود عليه بسليبات حقيقية، لأن خوفه الأساسي كان

من استمرار عبوديته، التي لم يجد إمكانية أخرى للتخلص منها، غير ما أقدم عليه من اعتناقه للإسلام. وهذا ما أعرب عنه لصديقه "ألبير كويزينيي" عندما صادفه في "باب عزون" وهو في طريقه للحقل« لقد حوصرت يا صديقي، ولا حيلة لي...»(Chukri Khodja,1992,p :54). وقد تكون رغبة "برنار لوديو" أن يجاريه صديقة "ألبير" فيما أقدم عليه، على الأقل كي يجد راحة نفسية له، غير أن "ألبير" أجابه« إنك تطلب مني المستحيل يا صديقي...»(Chukri Khodja,1992,p :54)) .رغم هذا الرد الذي يبدو حاسما وواضحا من لدن "ألبير كويزينيي" أمام صديقه "برنار"، هناك حوار بين الاثنين يوضح أكبر دواعي الاندماج، حيث بارد "برنار لوديو" صديقه "ألبير" بالقول:

«–أقسم لك أنني أقدمت على ما أقدمت عليه، فقط بغرض التخلص من العذاب والذل التي طالما يعاني منهما الأسرى الأوروبيين أمثالي.

–إنه جبن !...

–إنني لا أخاف الأتراك، ولكن ما يخيفني هو حياة الشقاء والبؤس، التي يسببونها لي نتيجة هذه العبودية المقيتة»(Chukri Khodja,1992,p :56).

تثبت النماذج الواردة من الرواية، أن البطل الأساسي "برنار لوديو"، لا يرغب في الاندماج إلا بالقدر الذي توفره له عملية التحول الطبقي. فهو لا يقبل بعبوديته للجزائريين كإنسان أوروبي، وكذا التخلي عن هويته المسيحية، غير أنه يقبل بعملية الاندماج، من خلال وعيه الطبقي بأن رفض الاندماج يعني دون شك القبول بالعبودية.

وفي هذه الحال، تكون الرواية من خلال مسارها السردي، تقدم أنموذجا نوعيا لعملية التحول التاريخي والاجتماعي للبطل، وفق ما أراده من تحرر من أسر العبودية، رغم ما يفرض عليه من تنازلات جوهرية، من أجل التخلص من وضعه الطبقي الحالي، والارتقاء إلى وضع طبقي أفضل.

في تفسير الطبقية والانتماء الاجتماعي–مقاربة تاريخية وجمالية لرواية "العلج أسير البرابرة" لشكري خوجة

إن الوعي التاريخي والاجتماعي الذي تميزت به شخصية "برنار لوديو"، كشخصية رئيسة في الرواية يجسد عملية كفاح من أجل الرقي إلى ما هو أفضل. وهنا يكون النص مجسدا لمسار تاريخي تحولي للشخصية من خلال رصده لخصوصية الاختيار التاريخي، الذي فرض عليها نتيجة وضعها العبودي.

يجسد مسار السرد في رواية "العلج أسير البرابرة"، قيمة التحول الجدلي من خلال رصد مراحل تطور وعي الشخصية السردية الرئيسة. وطبيعة الوعي التاريخي للشخصية، تختص بتبني رؤية جديدة للعالم المحيط، وفق ما ينبغي عليها تبنيه فيما بعد، من قناعات عقيدية ودينية جديدة، كانت لها بمثابة الانفصام الفعلي على مستواها النفسي والاجتماعي معا.

لذلك لا تجسد "رؤيا العالم" عبر مسار النص السردي، عاملا إيجابيا بالنسبة للشخصية، إلا بقدر ما يتوفر لديها فقط، من إمكانات واقعية للتخلص من حياتها العبودية. ولعل هذا ما يضع التفسير المادي للخطاب الأدبي في الرواية على درجة من الحساسية المعرفية.

فإذا كان التفسير المادي للخطاب الأدبي، من حيث كونه خطابا جماليا يعنى بتحديد خصوصيات الوعي التاريخي للشخصية الرئيسة، من خلال وعيها الطبقي، فقد يكون ذلك غير صحيح بالنسبة لشخصية "برنار لوديو"، من حيث كونه قضى على عبوديته عندما أشهر إسلامه بجامع "كتشاوة" أمام جمع غفير من المصلين المسلمين (Chukri Khodja,1992,p :57) جاءوا لأداء الصلاة، فإن هذا لا يعني بالضرورة انتصارا طبقيا فعليا أمام تراجع المعطى الحضاري بالنسبة لـ"برنار" الذي لا يبدو اعتناقه للإسلام عن قناعة فعلية، لاسيما ما سيتوقعه بعد ذلك من نظرات أصدقائه أمثال "ألبير كويزينيي"، و الإسبانيين "فرانكو كاسبيرو" والقس "سابليرو"، وغيرهم من الذين تعرف عليهم في السجن، ثم صاروا إلى أعمال "السخرة" في الحقول الفلاحية والأعمال الأخرى.

يتأكد في هذه الحال المعطى الحضاري، كأهمية تاريخية من خلال ما يحمله من تحد صريح لشخصية "برنار لوديو"، الذي صار فيما بعد نهبا لأزماته النفسية وتأنيبات ضميره التي لا تتوقف. وهذا الذي فيما بعد جعله يعيش على هامش الحياة الواقعية، رغم فرحة "إسماعيل حاجي" بإسلامه، وجعله مساعدا له في أعماله، وتزويجه من ابنته بعد عملية "ختان" أجريت له طبقا لأحكام الشريعة الإسلامية(Chukri Khodja,1992,p :70)، ليتحول من "برنار لوديو" إلى "عمر لوديوس". ورغم التحول الطبقي الذي حظي به، غير أن ذلك لم يمنعه من مواجهة حالات الانفصام الشعورية، نتيجة تحوله عن أصوله الحضارية والدينية.

وبالعودة إلى مخاوف "برنار لوديو" بداية من ظروف القهر الاجتماعي، الذي يسببه الأتراك العثمانيون–كما اعتقد–، فلم يكن الدين في هذه الحال، غير ذلك العامل السلبي، الذي مكن هذه الشخصية، من تحقيق الامتيازات الطبقية وقبول الاندماج، وفق معطيات حضارية جديدة عليها، رغم أمانها بعد ذلك من تحديات العبودية التي لم تتمكن من قهرها ومواجهتها.

فالمعطى الحضاري الذي يمثله الدين، من خلال النماذج المذكورة، هو وسيلة لتحقيق المزيد من الطموحات الاجتماعية، التي تمكن من تبوأ طبقة اجتماعية مميزة، أمام ما تأمنه فيما بعد من استبداد العبودية.

فالتحول التاريخي والاجتماعي في هذه الحال، هو تحول لا يعبر عن إيجابية الشخصية الفاعلة، بقدر ما يعبر عن تراجع حقيقي، رغم الامتيازات الطبقية الجديدة، التي لم تتمكن من تحقيق إيجابيات واقعية على مستوى وعي الشخصية، نتيجة تراجعها المستمر بعد تخليها عن انتمائها الحضاري.

إن حالة التجاوز الطبقي، على مستوى شخصية "برنار لوديو"، تقدم من الناحية الشكلية صورة إيجابية لـ"رؤيا العالم"، وفق مقتضيات الوعي المادي والاقتصادي بخصوصية الواقع الاجتماعي، وما يتميز به من مفارقات طبقية واجتماعية واضحة. وتتمثل الصورة الإيجابية في كون شخصية "برنار" تمكنت من تحقيق تجاوز طبقي فعلي بالتخلص من

عبوديتها وتحررها من الأسر، وتحسين وضعها الاجتماعي بعد ذلك. ثم يتحسن وضعها الاجتماعي أكثر، عندما يصير له ولدا يسميه "يوسف"، والذي ينشأ نشأة سلفية "ماضوية" تبعا للتقاليد الدينية التي ارتضاها له جده "إسماعيل حاجي"، أملا في أن يصير عالما دينيا وإماما. وهو ما لم يرضه له والده « الذي خشي كثيرا من رؤية ولده يضيع منه إلى الأبد، وسط محيط اجتماعي مسلم»(Chukri Khodja,1992,p :83).وهذا ما جعل "رؤيا العالم" بالنسبة لشخصية "برنار" تأخذ نمطا سلبيا، من حيث كون الوضع الطبقي الجديد رغم أريحيته، فهو لا يعطي الوجاهة الحقيقية لطبيعة الإنسان. لذلك لا يتصور أن "رؤيا العالم" في هذه الحال، قد تقف عند حدود المتطلبات المادية للحياة، إنما قد تتجاوزها أحيانا إلى حدود هامة، تتعلق بالجانب المعنوي الذي يحقق قيمة وجوهر الإنسان، وهو الجانب الحضاري الديني.

5–في إشكالية الاغتراب الشعوري:

مثل الاغتراب الشعوري في رواية "العلج أسير بلاد البربر"، رؤية محورية اختصت ببلورة الوعي التاريخي والحضاري للشخصية الرئيسة. ويتمثل هذا الوعي في مسألة الاندماج في قيم حضارة أجنبية بالنسبة لها. ومع أن الانتماء الطبقي للشخصية سار على نحو تحول إيجابي، فهذا لم يمثل عامل رضى واستقرار شعوري بالنسبة لها، مما جعل مشروعية الوعي التاريخي والطبقي، تقف على درجة من الحساسية التاريخية، التي لا تمنح الشخصية السردية الرئيسة قيمتها البطولية القابلة للتطور والتحول معا، وهو المعنى الجوهري للاغتراب الشعوري الذي صرحت به الشخصية لـ"ألبير كويزينيي"« إنك تعلم جيدا أنني في ندم شديد على ما أقبلت عليه، ولحسن حظي أنني وجدت فيك الشخص الذي أبوح له بأسراري، علني أتخلص من تأنيب الضمير الذي لم أعد قادرا على تحمل تبعاته، ومعاناته الأليمة»(Chukri Khodja,1992,p :83). وهو الشعور ذاته الذي أباح به "برنار لوديو" لزوجته "زينب" عندما لاحظت وجومه الدائم، سائلة إياه إن كان قد ارتكب ما يشين، حيث أجابها« إن ضميري

يعذبني يا زينب(...) لقد اقترفت ما هو أكبر من جريمة القتل نفسها، لقد قتلت دينا هو ديني»(Chukri Khodja,1992,p :85).

قد ترد نتيجة لمثل هذه النماذج المجسدة لقيم الصراع الحضاري، أسئلة تتعلق بإمكانية محاولة نسيان ما كانت عليه شخصية، "برنار لوديو" من مسيحيتها؟.. أو التخلص من انتمائها الحضاري مع تقدم الزمن والعمر؟.. أو حتى محاولة الاقتراب أكثر من خصوصية الدين الإسلامي، فقد تؤمن به عن قناعة؟.. أو تجاري واقعها الاجتماعي وتخضع لظرفها التاريخي ، علها تجد مشروعية لما أقدمت عليه من تخل عن مسيحيتها؟.. مثل هذه الأسئلة تمثل انشغالات نموذجية، لما يمكن أن تلجأ إليه شخصية، تريد الاكتفاء بوضعها المادي والاجتماعي الجديد، ثم تساير الحياة فيما بعد كحياة إنسانية واجتماعية جديدة. هذا ممكن من الناحية المادية الموضوعية والواقعية أيضا. غير أن المعطى الحضاري أثبت وجودا قويا لدى الإنسان، على مستوى النص السردي. وفي هذه الحال تكون البنية النصية، تنتصر لمعطيات حضارية صرفة، تتعلق بطبيعة الصراع الحضاري المتجدد، الذي واجهه الإنسان الجزائري خلال فترة العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين، عندما طرحت عليه بقوة وكتحد حضاري صريح مسألة الاندماج الاجتماعي في المجتمع الفرنسي الكولونيالي. وكان على الجزائري وقتها الاختيار بين العبودية الاستعمارية، والاندماج من أجل كسب حقوق المواطنة الفرنسية والتخلص من العبودية الاستعمارية ولو جزئيا. وهنا يكمن الوجهان المتقابلان لوقائع الرواية تاريخيا، بين وقائع حدثت خلال أواسط القرن الخامس عشر الميلادي، ووقائع تماثلها حدثت خلال العقدين الثاني والثالث من القرن العشرين الميلادي، لكن بطريقة عكسية تماما. ويكون القارئ ساعتها، أمام عملية إسقاط تاريخي، له بعد ذلك أن يحدد بعمق طبيعة الاندماج، كمسألة حضارية مطروحة.

إن المعطى الديني في الرواية، هو المحرك الأساسي لقضية الصراع الحضاري، على مستوى أحداث النص بشكل عام. ومع أن عملية الصراع هنا لا تأخذ منحى ثوري تغييري،

نتيجة عجز الشخصية الرئيسة، فهي بذلك لا تعطي للتاريخ خصوصية إيجابية، من حيث كون الصراع لا يخضع لحتميات واقعية مادية، مع أنه يكتسب مشروعيته من حيث أحقية الإنسان في العقيدة الدينية التي يرتضيها لنفسه.

وميزة الاغتراب الشعوري هي التي حتمت فيما بعد على "برنار لوديو"، العودة بعد عشرين سنة من إسلامه لجامع "كتشاوة"، ليقف أمام جموع المصلين، ووسط دهشتهم يرسم علامة "الصليب" على صدره ويؤدي الصلاة المسيحية الموروثة عن دينه (Chukri Khodja,1992,p :120).

قد يكون هذا التصرف بمحض دافع شعوري، يعبر عن قهر داخلي للشخصية. وفي هذه الحال يعطي هذا السلوك الذي يبدو قويما في نظرها، أحقية الشخصية في الدفاع عن وجودها الإنساني، من خلال التمسك والحفاظ على مقومات دينها وسائر المقومات الحضارية التي تخصها. فهي بذلك تتجاوز سلطة الرقيب الاجتماعي، بما يسمح لها من تحقيق ذاتها، دون أن تعبأ بالآخر. فسلوكها ذاك، يلبي حاجة نفسية هامة بالنسبة لها.

إن طرح مسألة الاندماج في الرواية، هو محاولة جادة للاقتراب من الخصوصية الحضارية للإنسان، وما يمكن أن يتميز به الكائن البشري عن غيره، مما يحقق له فيما بعد مشروعية وجوده التاريخي والاجتماعي.

وبالعودة إلى الوضع الاجتماعي للمجتمع الجزائري، خلال فترة حكم الأتراك العثمانيين، يفهم منه بأنه تركيب اجتماعي مزيج بين الجزائريين والأتراك العثمانيين والأجانب الأوروبيين، على اختلاف تفاوت منازلهم الاجتماعية وطبقاتهم ووجاهتهم. مما يثبت وجود فوارق طبقية حقيقية، وهذا ما يفسر طبيعة البناء الاجتماعي للمجتمع، التي تصوغها قيم الأرستقراطية والبرجوازية.

فنتيجة لعوامل الصراع التاريخي التي صنعتها الحروب البحرية آنذاك، نشأ وضع اجتماعي قام على دعامتين أساسيتين هما: دعامة الجيش الذي تمثله القوات البحرية لأسطول الجزائر، وأساطيل الدولة العثمانية. ودعامة المال الذي هو نتاج مصادر مختلفة، من إتاوات بحرية على الأساطيل الأوروبية العابرة "للبحر الأبيض المتوسط"، وزراعة، وتجارة. الشئ الذي أنتج مجتمعا طبقيا، قوامه الأساسي العبيد الأسرى من القوميات الأوروبية المختلفة.

وبحسب سياق النص، تكون الطبقية متشكلة عبر تطورها الزمني التاريخي، كون العبيد الأسرى يصيرون مع مرور الزمن جزءا من التركيبة الاجتماعية للمجتمع الجزائري. ونتيجة للتفاوت الطبقي بين العبيد الأسرى والجزائريين والأتراك العثمانيين، تطور الوعي التاريخي لدى أولئك العبيد الأوروبيين، لتطرح مسألة الاندماج الاجتماعي من منطلق تحد حضاري بالنسبة لهم، تمثل في تخليهم عن هوياتهم الدينية، وبعض ما يمت بصلة لأخلاق الإنسان الأوروبي، من خلال اعتناقهم للإسلام مقابل حريتهم، وتحسين أوضاعهم الاجتماعية.

وهي الصورة العكسية ذاتها التي طرحت على الجزائريين، خلال عقدي العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين. من حيث محاولة إيجاد مشروعية الوجود الاجتماعي لدى الإنسان الجزائري، مقابل تخليه عن هويته الحضارية والتاريخية والوطنية.

إن النص في تقديمه لشخصية "برنار لوديو" على أساس من الازدواجية والاغتراب الشعوري، هو تحقيق لخصوصية الانتصار لوعي تاريخي، يحتكم بالدرجة الأولى لعوامل الصراع الطبقي. وإن كان العامل الحضاري يقدم صورة تمثل إسهاما فعالا في بلورة أحداث النص، فهو لا يستقيم طويلا أمام القناعات المصيرية بضرورة تجاوز الوضع الطبقي القائم.

فبحكم البنية التحتية التي كان يعيش ظروفها الصعبة "برنار لوديو"، كان لزاما عليه طرح آليات التخلص من تلك الظروف، بحسب ما تمليه حيثيات الصراع الطبقي، بالارتقاء عبر السلم الاجتماعي، نحو طبقة اجتماعية أخرى مميزة، ويكون العامل الحضاري سبيلا لذلك. وهنا كانت سلبية الشخصية، من حيث كونها لم تجابه وضعها الاجتماعي والاقتصادي كما

ينبغي أن تجابهه، من خلال الاحتكام لحيثيات الحياة الواقعية التي كانت تحي تناقضاتها آنذاك.

إن طبيعة البطل الإيجابي في الرواية الواقعية، لا يمكن لها أن تحتكم بأي حال من الأحوال، لعوامل خارجة عن طبيعة الوجود الاجتماعي. لأن الوجود الاجتماعي هو السبيل الأمثل، لتحديد وعي الأفراد والجماعات وليس العكس. فمن منطلق كون المعطى الحضاري للنص، يتعلق بوجود علاقات اجتماعية متناقضة خلال ما يزيد عن قرن من الزمن، من حكم الاستعمار الفرنسي "للجزائر"، فهذا طبيعي جدا كون المنظومة الاقطاعية الاستعمارية، أوجدت نظاما اقتصاديا أقر بوجود فوارق اجتماعية، نتيجة استئثار الفئات الاقطاعية للمعمرين بمصادر الثروة، والاحتكام لمعطيات مجتمع زراعي يقوم على علاقات غير متكافئة بين أفراده، نتيجة الخلل الواضح في علاقات الإنتاج وأنماط التوزيع.

وثنائية "السيد" و"العبد" التي طرحت على مستوى النص، اقتضت من لدن الطرفين الوعي بقيمة وأهمية الوجود التاريخي والاجتماعي للفرد، من خلال عامل حضاري قدم على أنه العامل الأساسي للصراع على مستوى النص.

مع أن الحقيقة الموضوعية تقدم الحيثيات الاجتماعية والاقتصادية، في تحديد وتحليل علاقات الصراع بين السيد والعبد، بحسب تطور طبيعة الحدث الروائي. ومع أن الصراع في النص، لا يأخذ حيثيات واقعية صريحة، فإنه يأخذ حيثيات أعمق تبعا لطبيعة الوعي التاريخي الذي اتسمت به شخصية "برنار لوديو"، باختيارها لمعطى حضاري جديد، أنتج لديها انفصاما على مستوى الشخصية والشعور معا، انتهى بها إلى الجنون ثم الموت الحتمي بعد ذلك.

لذلك تكون علاقات الصراع على مستوى الرواية، محددة بطبيعة العلاقات التاريخية والاجتماعية المتناقضة، بين الشخصيات الفاعلة على مستوى النسيج السردي. وفي هذه الحال، لا يمكن للقارئ أن يفهم طبيعة الوعي المادي للشخصية السردية، إلا من خلال ما

يتوفر لديها من الوعي الموضوعي، بطبيعة العلاقات المتناقضة التي تحدد وجودها، العوامل المادية والاقتصادية التي كانت تحكم المجتمع الجزائري آنذاك.

*** المصادر والمراجع:**

1- Chukri Khodja :Mamoun ,l'ébauche d'un idéal-roman-, 1er édition de l'OPU,Alger 1992

2- Rabah Akli Zénati : Bou-El-Nouar,le jeune algérien-roman-,édition la maison des livres ; Alger 1945

3- Chukri Khodja : El-Euldj Captif des Barbaresques-roman-, 1er édition de L.O.P.U,Alger 1992

4- تيري إنجلتون: فكرة الثقافة، ترجمة: شوقي جلال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة -مصر، الطبعة الأولى 2012

5- أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي-نشأته وتطوره وقضاياه-، ديوان المطوعات الجامعية-الجزائر، الطبعة الأولى 2007

6-Ahmed Lanasri : La Littérature Algérienne de l'entre-deux guerres :genèse et fonctionnement,édition publisud,paris 1995

7- مالك بن نبي: مشكلات الحضارة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق- سوريا، الطبعة الأولى، 2000

8- Albert Memmi : Portrait du colonisé, précédé du portrait du colonisateur,petite Bibliothèque ,Poyot, Paris,1973

***الهوامش:**

1- تيري إنجلتون: فكرة الثقافة، ترجمة: شوقي جلال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة -مصر، الطبعة الأولى 2012، ص:15

2- أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي-نشأته وتطوره وقضاياه-، ديوان المطوعات الجامعية-الجزائر، الطبعة الأولى 2007، ص:185

3-Ahmed Lanasri : La Littérature Algérienne de l'entre-deux guerres :genèse et fonctionnement,édition publisud,paris 1995,p :178

4- مالك بن نبي: مشكلات الحضارة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق-سوريا، الطبعة الأولى، 2000، ص:80

5- Chukri Khodja :Mamoun ,l'ébauche d'un idéal-roman-, 1er édition de l'OPU,Alger 1992, p :88

6- Albert Memmi : Portrait du colonisé, précédé du portrait du colonisateur,petite Bibliothèque ,Poyot, Paris,1973,p :124

7-Rabah Akli Zénati : Bou-El-Nouar,le jeune algérien-roman-,édition la maison des livres ; Alger 1945,p :132

8- Ibid,p :202

9- Albert Memmi : Portrait du colonisé, précédé du portrait du colonisateur,petite Bibliothèque ,Poyot, Paris,1973,p :156

10- Chukri Khodja : El-Euldj Captif des Barbaresques-roman-, 1er édition de L.O.P.U,Alger 1992

11- Chukri Khodja : El-Euldj Captif des Barbaresques,p :17

12- Ibid,p :16

13-Ibid,p :26

14- Ibid,p :22

15- Ibid,p :44

16- Ibid,p :54

17- Ibid,p :54

18- Ibid,p :53/54

19- Ibid,p :118

20- يراجع في ذلك أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص:198

21- Chukri Khodja : El-Euldj Captif des Barbaresques,p :123

22- Ibid,p :126

23-Ibid,p :118

24- Ibid,p :54

25- Ibid,p :54

26- Ibid,p :56

27-Ibid,p :57

28- Ibid,p :70

29- Ibid,p :83

30- Ibid,p :83

31- Ibid,p :85

32- Ibid,p :120